العلم والمدنية الحديثة

(خلاصة خطبة للاستاذ متكاف الاميركي القاها على مؤتمر عقده الطلبة الصينيون في اميركا باحدى المدائن الاميركية)

في الجسم الانساني اعضاء جوهرية كثيرة يتسلط عليها اعصاب متضادة في عملها. فالقلب مثلاً فيهِ اعصاب تساعدهُ على الضربان واخرى تعوق نشاطهُ فينتج عن هذين العملين تنظيم حركة القلب طبقاً لحاجات الجسم. وهذا مايجري في عضلات الساعدين والساقين وسائر عضلات الجسم وفي الاعمال العقلية فضلاً عن المادية. فنجد الالم يوازن اللذة والواجب يوازن العواطف. واذا خرجنا عن دائرة الجسم الانساني والمملكة الآلية الى المملكة غير الآلية رأينا الكواكب في افلاكها تمشي على هذا المبدإ فتحفظ ضمن دائرة محدودة. وهكذا نجد حركة دقائق المادة عرضة لقوتي الجذب والدفع

وما يصدق على هذه كلها يصدق على المجتمع الانساني ايضاً فانهُ عرضة لتحكم قوات متضادة فيهِ تعين مجرى سيرهِ كالفردية تضادها الاشتراكية. والمحافظة على القديم او التقاليد تضادها الراديكالية او علوم الامتحان. والقوات التي تقيد المجتمع من جهة تضادها القوات التي تدفعهُ للسير الى الامام من الجهة الاخرى. وربما كانت اصح تسمية لهاتين القوتين المتضادتين روح التقليد والروح العلمي

وقد جرت عادة كثير من العلماء ان يذموا روح التقليد وفي الطبيعة نفسها شيء كثير منهُ. فقوة الاستمرار مضادة لقوة الحركة وهما متساويتان في عظم اهميتهما من الوجهة الطبيعية

ومن اللازم للمجتمع الانساني ان تعمل فيهِ القوة المحافظة والقوة الراديكالية معاً ولكن التاريخ يعلمنا ان كفتيهما لم تتوازنا على الدوام. ففي العصور التي نعتت بالمظلمة سادت روح التقليد والمحافظة على القديم كل السيادة فكان عاقبة ذلك مكث اوربا حيث كانت. وفي الثورة الفرنسوية سادت الروح الراديكالية اي روح التطرف والمغالاة ولم يكن منها لها زاجر ولا شكيمة ترد جماحها فنتج عن هذا التمادي في الغواية انقلابات لا وجهة لها ولا خطة معلومة تجري عليها.

وليس يصعب على جاذفين ان يسيرا قاربهما وكلٌّ منهم يحرّك مجذافهُ على هواهُ بلا نظر الى حركة مجذاف الآخر ولكن جري القارب يكون على غير هدى وان يكن حقيقيًّا فلا يعلم النوتيان هل يبلغان غرضهما ولا متى يبلغانهِ . وانما يُنال السير المستمرّ في الجهة المرومة اذا عملا يداً واحدة في جهة واحدة وكلٌّ منهما يطابق بين حركات مجذافهِ وحركات مجذاف صاحبهِ

وللتقليد الاجتماعي مزية جوهرية لازمة كلّ اللزوم لتقدم الهيئة الاجتماعية وهي ثباتهُ على حال معلومة . فلا غنى للواحد منا عن معرفة خطة السير التي يسير عليها معاصرونا او المجتمع جملة والاّ لم يستطع المطابقة بين اعمالهِ واعمالهم . فلو كان في شروق الشمس كل يوم شكٌّ او لو كنا لا نستطيع الايقان ان النار تشتعل ونحن نشعلها لسادت الفوضى جميع اعمالنا . وهذا يصدق على الاحوال الاجتماعية كما يصدق على غيرها

فالعادة اساس جميع الحياة الاجتماعية ولولاها ما كان للمجتمع وجود . والمرجح انها كانت تسود الفرد والجماعة بادئ بدء وان استقلال الرأي لم يظهر الاّ متأخراً . ولا يزال كثيرون منا يجرون في امورهم طبقاً للعادة الاجتماعية او العرف لا لآراء ابدوها مستقلين عن الجماعة . وقلما يفكر احد منا او يعمل مستقلاً عن العرف الاجتماعي . والغالب ان يكون نشاط الناس جنسيًّا او اجتماعيًّا لا فرديًّا

وكما ان وجود الفردية بين الحيوانات علامة على ارتفاع درجتها في سلم الارتقاء كذلك نجد ان استقلال انسان ما عن العرف الاجتماعي وقدرتهُ على التفكر لنفسهِ والاعتمال اي العمل مستقلاً عن الجماعة هي علامات عظم ارتقائهِ

ما هذا اللغز او ما هذا التناقض . ان المجتمع في نشوئهِ وارتقائهِ يخرج كل يوم رجالاً مستقلين بعض الشيء عنهُ وكلما ازداد عددهم في جماعة من الجماعات كانت هذه الزيادة مقياس ارتقائها بالنسبة الى غيرها . خذ النحل مثلاً فان القفير هو كلٌّ شيء لهُ اي ان كلّ نحلة خاضعة بكليتها لجماعة النحل فاذا خرج بعضها عن القياد افضى الامر الى خراب القفير وتشتت جماعة النحل . اما في المجتمع الانساني فان وجود افراد مستقلين عنهُ لازم لحيويتهِ ومع ذلك فان مبالغة الفرد في اظهار فرديتهِ مضرٌّ بالمجتمع مفضٍ الى خرابهِ كما يجري بين النحل . فهنا صفتان التقليد

والاستقلال الشخصي وفكرتان الاشتراكية والفردية وكل منهما تناقض الاخرى وتعمل ضدها ولكنها لازمة لحيوية المجتمع

منذ ستين خطب مدير المعارف الاميركية خطبة قال فيها « ان اول واجب على ادارة المعارف العمومية اقناع الفرد بالجري طبقاً لقوانين المجتمع » . قابل بين هذا القول الصحيح وبين قول عالم قديم هو بولس الطرسوسي (الرسول) : فقد قال « امتحنوا كل شيء تمسكوا بالحسن » . فالقول الاول قول اهل التقليد وهو يبين لنا الصفة الجوهرية لثبات الهيئة الاجتماعية . اما الثاني فقول اعظم هرطوقي قام في التاريخ المسيحي وهو خلاصة روح العلم الصحيح

وقد ساد التقليد بلاد الصين بضعة قرون كان التقدم فيها قليلاً . وحاجتها العظمى اليوم انما هي الى نشر روح العلم فيها بسخاء لاعادة التوازن اليها وضمان الرقي لها . غير ان كثيرين يحسبون الروح العلمي ذا خطر . وهو كذلك لانهُ قوي يقلب ويخرب ويبدل بالاشياء من السكون الى الحركة . ولكن كل قوة هي سلاح ذو خطر على العالمين اذا كان في ايدي اهل الشرّ او الجهلة وذو خطر على هؤلاء اذا كان في ايدي اهل المدارك السامية والمبادىء الراقية

ولقد طال المطال في الشرق على سيادة التقليد حتى تبلورت الهيئة الاجتماعية وفقدت مرونتها فعادت ساكنة لا تجري في مجراها . ولكن هناك دلائل تدلُّ على ان النار المخبوءة تحت الرماد توشك ان تضطرم وانهُ اذا أُريد اتقاء الانفجار فلا غنى عن ترويح روح الارتقاء العلمية فانها هي التي تحلُّ العقد وتلين حد المراكب الخشنة

وكيف تقتبس هذه الروح العلمية . لا يغني الكلام عنها شيئاً ولا يكفي القول « هلمّ بنا ولنكن كلنا علميين » . فان جذور التقليد تأصلت في المجتمع حتى بات كل تغيير يراد ادخالهُ عليهِ بمكان من الصعوبة . وانما تجيء الروح الجديدة وتنمو على مهل ويكون نماؤها في مبدإ الامر بطيئاً الى حدّ يدعو الى خيبة الامل . ويمكن مساعدتها على النماء حتى تبلغ اشدّها في امة من الامم لا بالقوانين التي قد تسنّ لها ولا بقدوة الامم الاخرى فان هذه كلها لا تكفي بل بالتمرين . اي ان القيام بالاعمال العلمية والتمرس بها كل يوم هما اللذان يجلبان روح العلم وهما ما نسميهما بالبحث العلمي

ولبيان ذلك نقول ان الصناعة الحديثة تزداد اعتماداً كل يوم على الكيمياء والطبيعيات وادخال الصناعة الى بلد ما يجرها على اثرها ويجر الهندسة الحديثة معها وعظم شأنها في الصناعة والزراعة والتجارة مشهور لا يحتاج الى زيادة ايضاح. وربما كان اهم الحوادث في تاريخ الصين الحديث وادعاها الى الرجاء انشاء معاهد للطب العصري فيها على يد معهد ركفلر وانشاء مدارس للمرسلين. فان الطب يمس النفوس البشرية عن كثب لانهُ ينقذنا نحن واحباءنا من اخطار المرض والموت. ونتائج الاعمال الصحية ومقاومة الاوبئة مقاومة علمية وشفاء الامراض الفردية تقع في النفوس اعظم وقع. وربما كان الطب اعظم بياناً للفرق بين العلم الحديث والتقليد من سائر مرافق الناس. وادخالهُ الى بلد ما ادخال للروح العلمية لا يوازيهِ ادخال الصناعة في منافعهِ

ولكن لا مناص للصين اذا شاءت الانتفاع بالوسائل العلمية كالطب والصناعة والهندسة من مباشرتها بنفسها. فلا يكفيها ان تأتي بالاطباء الغربيين وتستخدم المهندسين ومديري المصانع. انهم لازمون لها ولكنهم لا يكفونها. فقد ابدت اليابان حكمة فائقة في مسئلة واحدة جوهرية عند اقتباس العلم الحديث. وهذه المسئلة هي انها استخدمت رجالاً من الغرب في اول الامر لادارة جامعاتها ومصانعها ومعاملها ولكنها لم تكتفِ بذلك بل ارسلت ابناءها الى تلك الجامعات والمصانع ليتعلموا فتعلموا. واليوم نراها منتجة في جميع فروع البحث العلمي ونراها تسترشد في حياتها بالروح العلمية استرشاد اعظم الامم الغربية بها. لا يكفي ان تجيء الامم الغربية الى الصين وتصلح شؤون مناجمها وغاباتها وزراعاتها وتمد سكك الحديد فيها وتعقد الجسور لها وتشق مرفاها وتنظم امور الصحة العامة فيها بل يجب على الصين ان تتعلم عمل هذه الاعمال بنفسها لتبلغ روح العلم الحقيقية اي الحكم على الاشياء بما تستحقهُ هذه الاشياء لا بما هو خارج عنها وامتحان كل شيء والتمسك بالحسن. وللوصول الى ذلك لا بدَّ من انشاء المدارس لتعليم الصناعة والهندسة والطب

وبعد ان تكلم الخطيب على حاجة الصين في الزمن الحاضر استطرد الى حاجتها في الزمن المستقبل وذكر في خلال خطبتهِ اموراً كثيرة الفائدة نلخصها في القسم الثاني من هذه المقالة